الاتجاه البغدادي في النحو العربي

أ . عبد المجيد عيساني
جامعة ورقلة
الجزائر

بغداد مدينة من أهم مدن العراق العربي، وهي و إن لم تكن كالبصرة و الكوفة من حيث احتضانهما النحو العربي وترعرعه فيهما إلا أن لبغداد كذلك بعد البصرة و الكوفة شأنا كبيرا.و يبدأ شأنها مع بداية الخلافة العباسية عندما جعلوا منها عاصمة لهم بدلا من دمشق وذلك لتقترب من بلاد فارس،لأن العباسيين أرادوا أن يستفيدوا منهم في شؤون الحكم لأسبقية الفارسيين في هذا الميدان . و هكذا أصبحت العاصمة محجة للعلماء والدارسين كشأن أي عاصمة أخرى يكون لها من الشأن مالا يكون لغيرها من بقية المدن الأخرى ، وربما يكون العباسيون أنفسهم شجعوا العلماء و الدارسين للرحيل إليها حتى تتجلى فيها عظمة العاصمة وعظمة الخلافة العباسية ، هذه المدينة التي قال عنها الرافعي : « حاضرة الدنيا و مدينة الإسلام و مظهر أبهة الخلافة وجلال الملك وكان علماء الكوفة أسرع الناس إليها فأكرم العباسيون لقاءهم»[1].

وليس فقط أهل الكوفة هم الذين قصدوها بل قصدها جل العلماء بغية الزيارة أو لمقاصد أخرى أو حبا في الإقامة بها، ومنهم سيبويه و الكسائي و الفراء والسيرافي و الإمام الشافعي الذي قال:"ما دخلت بلدا قط إلا عددته سفرا إلا بغداد فإني حين دخلتها عددتها وطنا " [2] وإنما يعود ذلك إلى المكانة التي بلغتها اجتماعيا وسياسيا وعلميا،وتلك طبيعة العواصم الكبرى عندما يريد لها أهلها ذلك،وقد أراد لها العباسيون فكانت.

ولئن كان الكوفيون هم أسبق من البصريين إلى بغداد ، فليس معنى هذا أنهم لم يلتحقوا بها،إلا أنهم وردوها متأخرين ، ولذلك لم ينالوا ما ناله

الكوفيون من الحظوة لدى الخلفاء العباسيين ، لأنهم السباقون إليها والأكثر احتكاكا من الحكام وتقربا منهم ،و هذا ما لم يحظ به البصريون في البداية نظرا لتأخرهم ولاعتزازهم بأنفسهم وتصلب نموهم الطبيعي، و عليه كان لابد أن يتأخر نحوهم في بغداد و أن يكون الكوفيون هم رواد الحركة العلمية و الأدبية على بداية عهد بغداد .

حيث فتح لهم المجال وكانت لهم الفرصة سانحة لبسط مذهبهم وجعله ينتشر بين الدارسين ، ويستحكم في البلاد طولا وعرضا وتقبله من طرف الحكام والخلفاء ، وهذا لا يعني أبدا أن البصريين لم يخوضوا غمار هذه الحركة بسبب هذا التأخر ،أو أنهم أحجموا عنها ،بل راح فريق منهم إلى العاصمة الجديدة (**بغداد**) وأخذوا يعرضون آراءهم النحوية وأفكارهم و أسس مذهبهم ، ليشرع هو كذلك في بسط نفوذه على العلماء و الدارسين كما هو الحال في المذهب الكوفي .

وقد كان الأمر كذلك حقا،فقد انتشر المذهبان في بغداد وأصبح أمام العلماء هناك مذهبان مؤسسان قديمان ودخيلان على البلاد وكانت لهم الفرصة متاحة للنظر في المذهبين البصري والكوفي على حد سواء و العمل على الموازنة بينهما ودراستهما في روية وتأني، وكانت النتيجة نشوء فريق جديد من النحاة ، أساسه واعتماده المستحسن من المذهبين .[3]

وما حصل في بغداد كان طبيعيا جدا , إذ لم يكن منتظرا أن يأخذ علماء بغداد بمذهب واحد أخذا كليا و يرفضون الآخر رفضا كليا, و لذا كانت النتيجة هو خروج بالجيد من المذهبين البصري و الكوفي حتى و إن كان الميل إلى البصريين جد واضح , وقد يكون ذلك إما لصحة المذهب البصري على الكوفي أو لطبيعة دراسة علماء بغداد لمسائل نحو العربي أو لأشياء أخرى نجهلها الآن ، بالرغم أنه في بداية عهد بغداد كانت الكفة تميل إلى النحو الكوفي بوضوح ، و

كان الأمر طبيعيا بحكم أسبقية الكوفيين إلى بغداد زمنيا و بحكم تقربهم من الحكام والخلفاء ،فتوفرت لهم الوسائل لبسط مذهبهم على العلماء والدارسين قبل أن يفعل ذلك البصريون ، غير أن التاريخ بعد ذلك حكم لصالح المذهب البصري وحظوته على حساب المذهب الكوفي ، و هذا الذي يجعلنا نميل إلى وجهة صحة المذهب البصري في عمومه، صلابة و هدفا على المذهب الكوفي .

وقد عرف علماء بغداد بالطبقة الجديدة الناشئة في بغداد و هي المتكونة من نحويين بصريين وكوفيين وناشئة جدد و أصبحوا يعرفون بآرائهم و يتميزون بها.

وقد كان نشوء هذا الاتجاه الجديد خلال القرن الرابع هجري معتمدا على الجيد والمستحسن عند المذهبين العتيدين البصري و الكوفي .« و كان من أهم ما هيأ لهذا الاتجاه الجديد، أن أوائل النحاة تتلمذوا للمبرد و ثعلب ، وبذلك نشأ جيل من النحاة يحمل آراء مدرستيهما،و يعني بالتعمق في مصنفات أصحابهما و النفوذ من خلال ذلك إلى كثير من الآراء النحوية الجديدة ». (4)

تلك خلاصة هذا الاتجاه انتقاء الجيد من المدرستين،محتجين مرة لهذا ومرة لذلك ، و لم يكتفوا بالاحتجاج فقط وإلا كانوا تبعا لغيرهم ، و إنما راحوا يستقلون بآراء جديدة ، كانت من إنتاجهم كدارسين وباحثين ،و بهذا يكون البغداديون قد شكلوا لأنفسهم منهجا جديدا ، لأننا لا نستطيع أن نطلق عليهم أنهم بصريون لأنهم ليسوا كذلك ولا أنهم كوفيين من حيث موطنهما،و لكنهم نهج جديد فيه ملامح البصريين من جهة وملامح الكوفيين من جهة أخرى،وما كان ليظهر هذا الاتجاه لولا وجود المذهب البصري و المذهب الكوفي وفضلهما الكبير على هذا الاتجاه ، إلا أنه استطاع أن يجمع ميزات المذهبين،لذا فهو جديد في قالبه وظاهره ولكنه قديم مستهلك في محتواه, غير أن القديم المستهلك لدى

البصريين و الكوفيين إنما دعموه واحتجوا له أو عليه و بحثوا عن الجديد من الشواهد مما لم يذكره البصريون ولا الكوفيون .

وقد ذهب د.شوقي ضيف إلى تسمية هذا الاتجاه البغدادي بالمدرسة البغدادية ورافضا لحجج النافين لها، لاعتمادهم على من يسلكون أنفسهم من البغداديين في سلك البصريين كأبي علي الفارسي و ابن جني مثلا ، مجيبا على أن السبب يعود إلى غلبة الآراء البصرية على هذا الاتجاه ، وذلك يتبين من خلال دراساتهم النحوية إلى حد المغالاة أحيانا .(5)

و لم يذهب د.شوقي ضيف هذا المذهب وحده في تسمية البغداديين بأنهم مدرسة بل ذهب كثيرون معه إلى هذا المنحى ، ولكن كثيرين كذلك لم يتوجهوا هذه الوجهة في حديثهم عن البغداديين .

وممن ذهب مذهب شوقي ضيف صاحب كتاب :« ظاهرة الشذوذ في النحو العربي» الذي أخذ يدافع عن الفكرة ويوازن بين المؤيدين و المعارضين، ليصل إلى دفع حجة المعارضين في اعتمادهم على عدم ذكر القدماء للبغدادية بهذا الاسم،وأسموهم بأسماء أخرى،كما أسماهم ابن النديم مثلا ممن خلط المذهبين(6) ، ثم يقول : "وبذلك كونوا لهم مذهبا مميزا " (7) والكاتب كان مصيبا في رده هذا على هؤلاء المعارضين،الذين لم يقدموا حجة قوية دامغة واعتمدوا فقط على غيرهم من القدماء بأنهم لم يذكروا اسم البغداديين.وهي المسألة نفسها المعروضة للنقاش .

ولكن الكاتب هو كذلك لم يكن مصيبا في دفاعه , نظرا للخلط الذي حصل له بين أن يكون هناك بغداديون،و أن يكون هناك مذهب بغدادي, لأن الاختلاف ليس في حقيقة وجود البغداديين أو عدم وجودهم وإنما الخلاف في هل استطاع هؤلاء البغداديون أن يكونوا مذهبا كما فعل البصريون والكوفيون أم لا ؟ وهل استطاع البغداديون أن يضعوا مبادئ ومنطلقات لأنفسهم ومذهبهم

يلتزمون بها لتكون قاعدة هذا المذهب الجديد –على حد قوله–، الذي وجد في بغداد ؟ أما الحديث عن علماء بغداديين فهذه ظاهرة لا يستطيع أحد نكرانها وليست محل خلاف أصلا بين العلماء و الدارسين.

وهؤلاء الذين احتجوا بعدم وجود المدرسة البغدادية معتمدين في ذلك على غيرهم من القدماء ، هم كذلك لم يقيموا حجتهم على ما ينبغي أن تقوم عليه، فلماذا لا يعتمدون على أنفسهم في البحث عن دليل به ينفون وجود شيء اسمه المدرسة أو المذهب البغدادي،لأن الاعتماد على الغير فقط, أو نقول كما قال غيرنا تبعا لهم،فهذا ليس قرآن يتلى ولا سنة يجب أن تتبع . وسنعود إلى الموضوع بعد أن نستكمل عرض الآراء .

ومن المؤيدين كذلك لوجود مدرسة بغدادية كل من صاحب "نشأة النحو" (محمد طنطاوي) وصاحب "القواعد النحوية " إن كانا يريدان بما ذكراه المفهوم الحقيقي لكلمة مذهب أو مدرسة , فقد ذكر هذا الأخير : « أتيح للبغداديين بهذا أن ينظروا في المذهب البصري والكوفي ويوازنوا بين آراء الفريقين فأنشأوا لهم مذهبا كان أساسه المستحسن من المذهبين . . .» [8] .

ومن المرجع نفسه عن أمين السيد صاحب كتاب " الاتجهاهات النحوية في الأندلس " قوله : «كانت مدرسة بغداد تطورا طبيعيا للدراسات النحوية».

وفي كتاب "نشأة النحو" ذكر صاحبه كلمة (مذهب) على البغداديين , ولكنه يثبت بنفسه زواله بزوال ظروفه المؤقتة , مما يؤكد عدم صواب ما ذهب إليه ، فقال : « لقد ظهر هذا المذهب على أيدي الخالطين الترعتين أواخر القرن الثالث وبلغ أشده منذ أوائل القرن الرابع إلى أن تضعضع شأن الخلافة العباسية بغلبة البويهيين عليها . . . فحينذاك تمزق الشمل وتفرق العلماء وما المذهب إلا مذهب العلماء في بغداد فكما انتثر جمعهم انفرط عقده . . . »[9] .

وهذه الجملة الأخيرة من الكتاب وحدها هي الصواب على عدم صحة تكوينهم مذهبا كغيره من المذاهب , لأنه انفرط عقده بتفرق جمع العلماء في بغداد , ولو صح هذا المعنى على كل مذهب في الحياة فماذا بقي من المذاهب إذن ؟! ولماذا عندما غابت البصرة اليوم وغابت الكوفة لم يغب هذا المذهب ولا ذاك , لأن حقيقة المذهب أو المدرسة أعمق بكثير من أن يعتمد علة تجمع العلماء في مكان , و ما أشبه ذلك بالفرق الشاسع بين مذهب و شيء أشبه بالمذهب بـ (جماعة) و (تجمع). فالكلمتان متقاربتان و كثيرا ما يخلط الناس بينهما , إلا أن حقيقة (الجماعة) العميقة في دلالتها ليست هي (التجمع) الذي يحصل بين لحظة و أخرى من مختلف المشارب , و لكنه سرعان ما يزول وينتهي بانتهاء ظروفه .

غير أنه في الجانب المقابل , أي الذين يرفضون مذهبية جماعة بغداد نجد د.مهدي المخزومي الذي يسميه اتجاها في قوله : « فكانت هذه الظاهرة نقطة تحول أو بادرة توحي إلى نشأة اتجاه جديد فيه مزايا الاتجاهين» [10] ،وإلى المنحى نفسه يذهب الباحث سعيد الأفغاني ، و يقول عنه :«ما عرف بالمذهب البغدادي» ويستشهد لذلك بما ذكره أبو الطيب اللغوي عندما قال:« فلم يزل أهل المصرين على هذا حتى انتقل العلم إلى بغداد قريبا،وغلب أهل الكوفة على بغداد،وحدثوا الملوك فقدموهم ورغب الناس في الروايات الشاذة وتفاخروا بالنوادر،وتباهوا بالترخيصات،وتركوا الأصول واعتمدوا على الفروع فاختلط العلم...» [11].

وأبو الطيب لم يكتف بنفي المذهب وإنما ذهب إلى أبعد من ذلك،حيث يراهم كأنهم كانوا نقمة على النحو العربي،وذلك بترغيب الناس في الشاذ والتفاخر به والتظاهر بالتراخيص النحوية واعتماد الفروع . . .الخ وهي نقمة ما بعدها نقمة تحتاج إلى بيان وتعليل , فما بالك أن يسميهم مذهبا ؟؟!

ومن القدماء بالإضافة إلى أبـــي الطيب نجـــد صـــاحب الفهرســـت لا يذكرهم كمدرسة وإنما يذكرهم بأنهم "خلطوا المذهبين " (12) .

وهنا لب الحديث وحقيقة البغداديين , وكل ما ذكرته وددت لو لم أذكره -نظرا لعدم جدواه في الموضوع- لولا أن المقام و الموقف يتطلب شيئا من ذلـــك , للوقوف على حقيقة الأمر .

وعبارة صاحب الفهرست هي أدق عبارة كان يجب أن تقال , و لم يكـــن صاحب الفهرست عاجزا على أن يذكر البغداديين بهذا الاســـم , أو مدرســـة أو مذهب بهذا الاسم , وإنما تلك هي حقيقة البغداديين أنهم خلطوا المذهبين.

وكل ما حصل من اختلاف خصوصا بين المحدثين حول إثبات المدرســة أو نفيها , أعتقد أنهم جميعا يتفقون حول مصطلح " الذين خلطوا المذهبين " و لم ينـف أحد من الدارسين قديما أو حديثا بأن هناك علماء وجدوا في بغداد , وهم أهل نحـو , هاجروا إليها أوجدوا بها وعاشوا هناك , بأنهم مزجوا النحو البصـــري والنحـــو الكوفي واعتمدوا على اختيار المستحسن منهما , ثم ذهبوا إلى التجديد و التدعيـــم فيما لم يذكر في المذهبين ، فكل العلماء متفقون حول هذا المعنى , الرافضين منـــهم والمؤيدين , وكل الذي حصل حوله الاختلاف هو المصطلح الذي يجب أن يطلـــق على هؤلاء الجماعة , فمنهم من أيد إطلاق كلمة مذهب أو مدرسة ومنهم مـــن عارض ذلك , وهي قضية ليست من الأهمية بمكان لكي تحتاج إلى هذا التجـــاذب و الصراع بين هؤلاء وأولئك . فالمصطلح لا يغني عن الحقيقة شيئا , وسوف لـــن يضيف هذا المصطلح إلى البغداديين شيئا ولن ينقص منهم شيئا .

أما المحتوى العام لهذا الاتجاه فقد ذكره جل العلماء حتى المحدثـــون منـــهم المؤيدون لمصطلح مذهب أو مدرسة .

ومن القدماء يقول الزجاجي : « من علماء الكوفيين الذين أخذت عنهم أبو الحسن بن كيسان وأبو بكر بن شقير وأبو بكر بن الخياط لأن هؤلاء قدوة أعلام في علم الكوفيين وكان أول اعتمادهم عليه ثم درسوا علم البصريين بعد ذلك فجمعوا بين العلمين»[13]،جمعوا بين العلمين،أي:بين علم البصرة وعلم الكوفة.

وذكرهم صاحب الفهرست في عنوان طويل : «أسماء وأخبار جماعة من علماء النحويين و اللغويين ممن خلط المذهبين» [14] .

وفي نشأة النحو « لقد ظهر هذا المذهب على أيدي الخالطين الترعتين» [15].

وفي المدارس النحوية يذكر في عشرات المواضع مصطلح يخلط المذهبين وذلك عندما تعرض للبغداديين ولعلماء بغداد .

وفي كتاب : تاريخ العلماء النحويين من البصريين و الكوفيين قوله عن ابن كيسان و« كان إلى مذهب الكوفيين أميل و يخلط المذهبين [16].

ونظرا لهذه التسمية التي اتفق حولها الجميع , و لم يذكر أحد غيرها من حيث محتوى هذا النوع من الاتجاه الجديد في بغداد , كان اعتمادنا في بحثنا في معرفة النحاة البغداديين , وهم كل النحاة الذين عاشوا في بغداد وخلطوا المذهبين , معتمدين في ذلك على المستحسن منهما , أو منهجا خاصا يقوم على الاختيار أوعلى الانتخاب أو الموازنة والمقارنة , وكلها مصطلحات مختلفة تدل على معنى واحد هو الدراسة العميقة للمذهبين وانتقاء الأصوب والأجود من الآراء , ثم محاولة الاجتهاد فيما لم يتطرق إليه سابقوهم من المذهبين البصري و الكوفي .

وقد وقفنا في كتاب "من تاريخ النحو" للباحث سعيد الأفغاني على ما هو أكثر , ويغالي في ذلك وينتهي إلى خلاصة عامة بعد تعرضه للمدارس النحوية ، ويقول : « وانتهينا إلى لزوم تصحيح التسمية الشائعة : للمذهب البصري والمذهب الكوفي والمذهب البغدادي , وأن الأصوب أن يقال : نحاة بصريون ونحاة

كوفيون ونحاة بغداديون يختلف سهم كل فريق من حيث النزعة القياسية عن نصيب غيره كما وكيفا » [17].

وما هذا الذي ذهب إليه إلا أن ما وجده عند هذه المدارس لا يتفق مع هذا المصطلح بشكل تام ، وليس معنى ذلك أن البصريين لم يشكلوا مدرسة أو أن الكوفيين لم يشكلوا مدرسة وإنما فيما نعتقد من تصريحه هذا أنه يجب أن نميز بينهما بما به يختلفان جوهرا , لكي تكون كل مدرسة قائمة على غير ما تقوم عليه الأخرى،وما دل على هذا جملته الأخيرة (يختلف سهم كل فريق...)أي أن الشيء واحد ولكن الأسهم فقط تختلف وتتفاوت من مدرسة إلى أخرى كما وكيفا .

قلت والشاهد في قوله , هو احترام مصطلح " مدرسة " إلى أبعد مما يستخدمه فيه كثير من الدارسين .

ومهما يكن من أمر شئنا أم أبينا فقد وجد هذا الاتجاه الجديد في النحو العربي , سماه البعض (مدرسة) ورفضه البعض الآخر , ولكنه اتجاه جديد لا محالة , نشأ في مدينة بغداد وانتسب إليها , لأنه ترعرع هناك وعرف له علماء كبقية المذاهب الأخرى , وعليه فلا سبيل إلى نكراته , فمهما كانت التسمية إلا أنه اتجاه جديد نستطيع أن نحدد له سماته وعلماءه من خلال الدراسات النحوية التي عرفت خلال المسيرة التاريخية للنحو العربي ، خصوصا في قرونه الأولى أيام كان مجال أخذ ورد بين العلماء و الدارسين .

هذا, وقد ميز بعض الدارسين المحدثين بين اتجاهين عند البغداديين, كان الأول مبكرا غلبت عليه الآراء الكوفية, فاحتجوا لهم وفتحوا أحيانا أبوابا للمذهب البصري وللتجديد أبوابا أخرى،ويذكر من هؤلاء أبو موسى الحامض (ت305)أبو بكر بن الأنباري (ت327) على حد تعبير صاحب نشأة النحو.[18] .

ويذكر شوقي ضيف منهم ابن كيسان ،و ابن شقير ،و ابن الخياط .

علما أن الاتفاق غير حاصل تماما بين الدارسين المحدثين في قائمة البغداديين, بل حتى القدماء منهم صاحب الفهرست مثلا يجعل " موسى الحلمض " من البغداديين و يذكره الكثير في قائمة الكوفيين .

وكان يقابل ذلك ، اتجاه آخر ولو كان متآخرا عليه ، يميل فيه أصحابه إلى آراء المدرسة البصرية وذلك عندما خاض البصريون غمار الحركة العلمية في بغداد،وقد جاءوا متأخرين إليها كما سبق ، و هي الطبقة التي غلبت على بغداد بعد ذلك . و يذكر لهذا الاتجاه الزجاج (ت310) و ابن السراج (316) والزجاجي(337)ومبرمان (ت345)،و قد ظهروا جميعا بعد الاتجاه الأول [19].

وهنا يذكر شوقي ضيف : الزجاجي (ت337) و ابن جني(392هـ) وأبي علي الفارسي(370)[20] .

ولا نجد ثمة في ذكر هذه الأسماء تناقضا بين الدارسين , بل ربما نجد نوع من التكامل , فما لم يذكره الأول ذكره الثاني و العكس , و إن كانت الدراسة الميدانية – لو توافرت كتب هؤلاء – هي الحكم الفصل بين الأمرين .

أما بقية من عرفوا في هذا الإتجاه البغدادي , فإنهم خلطوا المذهبين وجمعوا النزعتين البصرية و الكوفية , و إن كان الطابع العام كما تبين الشواهد النحوية التي قمنا بها ميلهم غل النزعة البصرية أكثر ، وربما يعود ذلك إلى قوة غلبة هذا المذهب على غيره وإلى فرض حججه وانتشاره في البلاد العربية طولاوعرضا.

ونظرا لغلابة الطابع البصري على الاتجاه البغدادي ذهب بعض الدارسين إلى تسمية ما يعرف بالمدرسة البغدادية بأنه اتجاه جديد انبثق من المدرسة البصرية و أطلقوا عليه اسم " مدرسة القياس" و هي تناقض المدرسة البصرية ولا تتعارض معها ولكنها تزيد بعض سماتها و خصائصها , و قد بدأت هذه المدرسة بابن السراج وتوطدت بأبي علي الفارسي و اكتملت بابن جني [21] .

وهؤلاء العلماء الثلاثة : أبو علي الفارسي , وابن السراج و ابـــن جـــني كلهم من علماء بغداد ويصنفه الدارسون في الاتجاه الجديد الذي غلبت عليـه الآراء البصرية ، وقد اختير لهم الاسم كشعار لغلبته على دراستهم النحوية .

«فأما أبو علي الفارسي ... طار صيته في النحو وأخذ يفكر في القيـــاس ليله ونهاره حتى استقام له منه مذهب وسّع الشقة بين الجـــامدين علـــى الســـماع وأنصار القياس ، والظاهرة أن عشق القياس بهره وأخذ على فكرة السبيل فصـــار يتنحن به كل مسألة تعرض عليه »[22] .

وقد كان ابن جني يقول : « الخطأ في خمسين مسألة أحب إلـــي مـــن الخطأ في مسألة واحـــدة من القياس »[23] .

ويجب أن نذكر كذلك أنهما كانا معتزلين وقد تأثر أحدهما بـــالآخر، لأن ابن جني هو تلميذ أبي علي الفارسي[24] .

وفي آخر هذا الحديث فإن بعض الدارسين يلخص بعض خصائص هـــذا الاتجاه في النقاط التالية :

- الاستقلال الفكري من حيث تناول المسائل النحوية بعدم تقييـــد أحـــد بضوابط معينة .
- الاتساع في القياس وتغليبه في دراستهم للنحو .
- الاستعانة بالمنطق تأثرا منهم بأصحاب المنطق وعلم الكلام منـــهم وأهـــل الاعتزال[25] .

وجل هذه الخصائص وجدت عند البصريين من ذي قبل إلا أنها بدرجة أقل .

أبرز رواد الاتجاه البغدادي :

لقد كان اعتمادنا في تحديد رواد هذا الاتجاه النحوي الجديد الذي ظـهر في بغداد، على قاعدة الذين "خلطوا المذهبين" أي الذين درسوا المذهبـــين البصـــري

والكوفي ، وأخذوا بكليهما على أساس من المفاضلة بينهما ، وإيثار المختار منهما ، ثم العمل على التجديد والاجتهاد أحيانا أخرى . وكان اختيار هذه القاعدة بناء على ما ذكر عند الأقدمين والمحدثين على عدم اختلافهم في هذه القاعدة التي اعتمدها رواد هذا الاتجاه .

ومن خلال تتبعنا لمختلف المصادر والمراجع القديمة منها والحديثة لم نجد أي اتفاق بين الدارسين في تحديد أسماء معينة وبشكل نهائي ، وبدون خلاف على زعماء هذا الاتجاه ، وإنما يذكر هذا المؤلف مجموعة ، ويذكر غيره مجموعة أخرى ، وأحيانا يلتقي البعض على أسماء ويختلفون في أسماء أخرى . وعليه فسنعمل على ذكر من كان مشهورا عند أغلبية الدارسين ، وكانت آراؤهم تتماشى وقاعدة الخلط بين المذهبين .

والمتتبع لمختلف الشواهد النحوية يستطيع أن يتعرف على بعض هؤلاء ولا يتعرف على أكثرهم ، وأقول على بعضهم، ذلك لعدم توافر نحوهم في كتبهم التي ذكر أنهم ألفوها والتي ضاع أغلبها ، ولم يبق سوى القليل منها ، خصوصا كتب المتقدمين منهم .

ولذلك فإن أكثر المصادر التي اعتمدناها في معرفة آراء هؤلاء، إما من مراجع عملت على دراسة هذا الاتجاه النحوي وذكرت بعض آرائه ، كما هو الحال في كتب النحو عموما ، كشرح الألفية ، أو شرح كتاب سيبويه ، أو بعض الدارسين المحدثين وهم يتعرضون بين الحين والحين إلى تلك الآراء الخاصة بهذا الاتجاه ، وإما اعتمادا على المصنفات الكبرى التي تركها زعماء هذا الاتجاه وكانوا من المتأخرين ، ومن ذلك : "شرح المفصل" لابن يعيش،و"الإنصاف"لابن الأنباري ، و"البيان في إعراب القرآن" "التبيين" للعكبري ،وغيرهم ممن كانوا في هذا المجال.

وتعد مؤلفات هؤلاء المتأخرين بشكل عام، جامعة للآراء النحوية البصرية منها والكوفية ثم البغدادية، باعتبار هؤلاء المؤلفين ممن يسلكون في هـــذا الاتجـــاه الجديد القائم على الاصطفاء من المذهبين والعمل على التجديد .

فكتاب "شرح المفصل" لابن يعيش الذي يعد موسوعة علمية ونحويـة في عصرنا هذا ، قال عنه صاحب المدارس : « أشبه بدائرة معارف لآراء النحاة مـــن بصريين وكوفيين وبغداديين... » (26) .

و" الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين و الكوفيـين" لأبي البركات بن الأنباري هو كذلك عمدة في هذا الاتجاه القائم على الموازنة و التحليل ، ثم يعرض رأيه الخاص وهو واحد من ذوي هذا الاتجاه الجديد , وقـــد كـــانت الفائدة منه عظيمة بالرغم من كل ما يقال فيه من نقص أو تحريف .

و" الخصائص" لابن جني يعد موسوعة علمية لأصول النحو العربي،وكانت الاستفادة منه كبيرة , و تفسير "الكشاف" للإمام الزمخشري وهو مـــن أصحـــاب الاتجاه البغدادي مصدر آخر استقينا منه آراءه النحوية قرآنية كانت أو شعرية .

كما كانت بعض الكتب الحديثة التي تعرضت للاتجاه البغدادي مصـــدرا آخر تم الاعتماد عليها في معرفة هذه الآراء ،" كالمدراس النحوية " لـــ د. شـــوقي ضيف و إن كان ما عرض فيه بسيطا جدا , و"ظاهرة الشذوذ في التحو العربي" لـــ د.عبد الفتاح الدجني الذي أشار إلى بعض الآراء الشاذة عند البغداديين , غـــير أن الآراء البصرية و الكوفية هي أكثر ما كان في البحث نظرا لتوافرهـــا عنـــد جـــل الدارسين , القدامى منهـــم والمحدثين على حد سواء .

وكل هؤلاء المتأخرين الذين اعتمدنا عليهم غالبا , هم كذلك من الاتجـــاه البغدادي و إن كانت الآراء البصرية تغلب عليهم كما هو حال الأولـــين منـــهم

كذلك .والقائمة الاسمية لهذا الاتجاه –حتى و إن كان لا يمكن حصرها- إلا أنه يمكن أن نذكر الأسماء التالية :

1-ابن قتيبة الدينوري : ولد سنة 213 و توفي بين 276 أو 277 هـ نشأ ببغداد أيام ازدهارها , «ومن الثابت على ماورواه ابن النديم أنه كان صادقا فيما يرويه عالما بالنحو وباللغة وصدوقا من أهل السنة» [27]. وذكر صاحب الفهرست : « و كان يغلو في البصريين إلا أنه خلط المذهبين» [28] .

2-ابن كيسان : هو أبو الحسن محمد بن أحمد كيسان قال عنه صاحب الفهرست : أنه خلط بين المذهبين و أخذ عن الفريقين[29] ، وهو من الأوائل في هذا الاتجاه البغدادي , وقيل عنه في المزهر : " كيسان ثقة ليس بمتزيد " [30] صنفه صاحب الطبقات مع الكوفيين في الخامسة بالرغم من ميله للاتجاه البصري .

3-الأخفش الصغير : وهو أبو الحسن علي بن سليمان الأخفش النحوي , كان حافظا للأخبار وتوفي سنة 315هـ. ذكر هذا صاحب الفهرست وزاد فيه من كتبه : " الأنواء و التثنية الجمع".

4-الزجاجي : هو أبو القاسم عبدالرحمان بن إسحاق ولد بنهاوند , لكنه نزل بغداد , ولقي الزجاج فلزمه حتى توفي سنة 337هـ ، وهو من الذين بسطوا المذهبين وأخذوا من كل طرف. . .و أخذ عن آخرين ممن جمعوا بين المذهبين [31] ذكر هو عن نفسه قائلا : " و أكثر ما أذكره من احتجاجات الكوفيين إنما أعربه بألفاظ البصريين " [32] .

5-ابن خالوية : عاش زمن المتنبي وناظره و أقام ببغداد , لكنه توفي بالشام بحلب سنة 370هـ ، يذكره صاحب الفهرست في مجموعة الذين خلطوا المذهبين [33].

6- أبو علي الفارس : هو الحسن بن أحمد بن عبد القادر الفارسي ولد288هـ ، رحل إلى بغداد واختلف إلى حلقات البصريين و البغداديين حتى

كل من صاحب الطبقات[34] و صاحب الفهرست [35] مع البصريين , لأنه قـــرأ النطق و الفلسفة كما قرأها البصريون , ولكن صـــاحب المـــدارس يســـلكه في البغداديين لأنه ينتخب من المدرستين ما يراه أولى بالإتباع [36] غلب عليه الاعـتزال و التشيع , وكان شديد العناية بالقياس حتـــى قال تلميذه ابن جني عنـــه : " مـــا كان أقوى قياسه و أشد بهذا العلم اللطيف الشريف أنسه فكأنه كان مخلوقا لـــه " [37] ، وتوفـــي سنة 370هـــ .

7-**الرماني** : هو أبو الحسن علي بن عيسى الرماني , مولده ببغداد سنة296 بمدينة سر من رأى،قاله ابن النديم،كان يجمع إلى علم النحو علم الكلام على مذهب البغدادي [38]،ومن كتبه "نكت سيبويه""المسائل المفردة"...إلخ توفي سنة 384هـ.

8-**ابن جـــني**: أبو الفتح عثمان بن جنـــي النحوي ، صـــاحب أبـــي علـــي الفارس وتلميذه , ولد بالموصـــل ســـنة (320م) تعرف على المتنبي وعلى ســـيف الدولة وصاحبهما , تتلمذ على يد أبي علي الفارسي وكانا معا يكثران من المنطـــق و العلة , و ذكر له صاحب المدارس اعتمادا على الخصـــائص أنـــه كـــان ميـــالا للبصريين ، لكون طول نظره وتبصره كان يدفعه في كثير من الأحيان إلى وقـــوف في صف الكوفيين و أوائل البغداديين , حيث نجد السداد في جانبـــهم[39] ، وقـــد اجتمعت له ثقافة متميزة من خلال دراسته للمذاهب وما استفاده من أســـاتذة أبي علي , إضافة إلى ما كان له من ثاقب النظر , ولطف الحس اللغوي, و الإطـــلاع على كلام العرب[40] وتوفي سنة 392هـــ .

9- **الزمخشري** : هو محمود بن عمر , مولود بزمخشر التي نســـب إليـــها , ســـنة 467هـــ،وهو معتزلي المذهب [41]،من أشهر مؤلفاته النحوية (المفصـــل) الـــذي شرحه ابن يعيش،قال عنه صاحب المدارس"إننا إذا أخذنا نتفقد آراءه وجدناه يمثـــل

الطراز البغدادي الذي رأيناه عند أبي علي وابن جني"[42] ميالا للبصريين ومجتهدا لنفسه،ويمثل تفسيره الكشاف جانبا كبيرا من نحوه واجتهاده.وتوفي سنة 538هـ.

10-ابن الشجري: أحد الذين صنفوا ضمن قائمة البغداديين ، ولد سنة 450هـ قال صاحب المدارس : " ونراه منذ فاتحة أماليه معجبا بالبصريين على شاكلة الفارسي وابن جني " [43] . من الذين خلطوا المذهبين مع انتصاره للبصريين[44] و توفي سنة 542هـ .

11- ابن الأنباري : أبو بركات بن الأنباري ولد سنة 513 , هو على شاكلة البغداديين كأبي علي , يجري في جمهور البصريين و يفتح الأبواب على الكوفيين . قاله د.شوقي ضيف[45] و هذا ما ظهر من كتابه " الإنصاف" الذي لم ينتصر فيه للكوفيين سوى في سبع مسائل من بين (121) مسألة يغالي كثيرا و يتمحل للبصريين في عدد من المسائل التي ظهر فيها الصواب للكوفيين , بالرغم من تعهده في مقدمة الإنصاف على ألا يتعصب ولا يسرف [46] ، غير أن صاحب دراسات حديثة حول ابن الأنباري اتهمه بالتحيز إلى البصريين و محاباتهم .

وهو الباحث جميل علوش في كتابه جهود الأنباري[47] لم يستشهد بالحديث الشريف إلا مرتين في مسألتي (77)و (103) ، وهما مسألتان لغويتان من بين عدد قليل جدا من الأحاديث التي أوردها في الكتاب كله , مما دل على عدم ثقته بالحديث الشريف , وهو موقف القدماء من قبل , وتوفي سنة 577هـ أي من المتأخرين البغداديين . وقد ذكره صاحب الاقتراح مذكرا بما كان يستشهد به وما كان يرفض فقال فيه :"لا يجوز الاحتجاج بشعر أو نثر لا يعرف قائله صرح بذلك ابن الأنباري في الإنصاف وكأنه علة ذلك خوفه أن يكون لمولد أو من لا يوثق بفصاحته " [48].

هذا تعليل السيوطي لابن الأنباري عملا على الاحتياط من شعر المولدين الذين أجمع النحاة على عدم الاحتجاج بشعرهم , و لقد تبين لي من خلال تتبع مسائل الإنصاف جميعها أنه كان يرفض ذلك ، و يقول باختصار بأنه شاذ لا يؤخد به أو بأنه مجهول القائل لا يصح الاحتجاج به .

ثم يذكر أدلته في الاحتجاج و المتمثلة في : النقل و القياس و استصحاب الحال[49] ، علما أن النقل يجمع القرآن الكريم وكلام العرب و " الحديث الشريف" في أحيان قليلة جدا, تدعيما للمسألة لا أكثر ولا أقل .

12-ابن الدهان : من الذين خلطوا المذهبين،توفي سنة 569هـ.

13-أبو البقاء العكبري : من المتأخرين زمنيا،ولد سنة 538هـ ذو اتجاه بغدادي, يظهر ذلك جليا في كتابيه « التبيين في مسائل النحويين» و « التبيان في إعراب القرآن» ، وهو من الذين قاموا بدراسات مقارنة بين البصريين و الكوفيين في كتابه الأول،الذي تبين فيه ميله للبصريين, وفتح الباب على الكوفيين على شاكلة أصحابه ، و بذلك حكم عليه صاحب المدارس[50] و لم يختر من آراء الكوفيين إلا قليلا، بل أنه يقدم رأيه في البداية وهو رأي البصريين تماما , و مع هذا يصنفه صاحب (نشأة النحو) ضمن قائمة الكوفيين فقال فيه : "إلا أن المعروف عن العكبري أنه كوفي في النزعة كما يتضح جليا في مؤلفاته...[51] ويقول في موضوع آخر:« فكما عزز الأنباري المذهب البصري عزز العكبري المذهب الكوفي ...» ؟؟ فأي مؤلفات هذه التي أوحت للكاتب بهذا ؟ ولقد تتبعت كتابيه المذكورين و لم نعثر على هذا وتوفي العكبري سنة 616هـ .

14-ابن يعيش: يعيش ابن علي بن يعيش من البغداديين المتأخرين، و صاحب الموسوعة النحوية و اللغوية في شرحه على مفصل الزمخشري ،الذي حوى عشرة أجزاء ، قال عنه شوقي ضيف : " أشبه بدائرة معارف لأراء النحاة من

بصريين و كوفيين و بغداديين. . .[52] و يضعه في قائمة الذيـــن انتخبـــوا مـــن المذهبيين ولا يستحسن من آراء الكوفيين إلا بعضها[53] .وتوفي سنة 643هـــ .

15-ابن فارس : وهو أبو الحسن أحمد ابن فارس بن زكرياء ذكـــره صـــاحب الفهرست من الذين أخلطوا المذهبيين[54] .

16-ابن السراج : محمد بن سري البغدادي النحوي أبو بكر ابن السراج , مـــن الأوائل في الاتجاه البغدادي , ذكر في كتابه« الموجز في النحو» [55] : " أنه مـــن البصريين المتحررين" و لايعني هذا إلا خروجه عنهم و ميله للكوفيين أو الاجتـــهاد، و ذلك هو مذهب البغداديين.توفي سنة 316هـــ . وجاء في البغية « يقال مـــازال النحو مجنونا حتى عقله ابن السراج بأصوله» [56] ،و من كتبه " شـــرح كتـــاب سيبويه" و"الموجز" و" الأصول الكبيرة "جاء ذلك في البغية،يقول عنـــه صـــاحب الفهرست أنه من أحدث غلمان المبرد سنا مع ذكائه وفطنته،ويضعه مع البصريين.

17-ابن الخياط :من أهل سمرقند وكان يخلط المذهبين،قاله ابن النديم[57].

وآخرون كنفطويه وابن شقـــير وغيرهم كثير ذكرهم صاحب الفهرســـت أنهم أخذوا عن البصريين وعن الكوفيين [58].

الهوامش

(1) مصطفى صادق الرافعي ، تاريخ آداب العرب : 387/1.

(2) عبد الفتاح الدجني ، ظاهرة الشذوذ في النحو العربي : 323 . وكالة المطبوعات الكويت .

(3) عبد العزيز عتيق ، المدخل إلى علم النحو و الصرف : 155 ، دار النهضة ، لبنان ، 1983 .

(4) شوقي ضيف ، المدارس النحوية : 245.

(5) شوقي ضيف ، المدارس النحوية : 245 .

(6) النديم محمد بن اسحاق ، الفهرست : 121.

(7) ظاهرة الشذوذ في النحو : 330 .

(8) نفـــسه : 131.

(9) محمد طنطاوي ، نشأة النحو : 63 .

(10) مهدي المخزومي ، مدرسة الكوفة : 81 .

(11) سعيد الافغاني ، في أصول النحو : 230.

(12) الندم محمد بن اسحاق ، الفهرست : 121 . دار النشر ، تونس ، د.عبد العال سالم مكرم .

(13) شوقي ضيف ، المدارس النحوية : 247.

(14) الفهرست : 121 .

(15) نشأة النحو : 163.

(16) أبو المحانس بن محمد ، تاريخ العلماء النحويين والبصريين ، دار الهلال ، الرياض 1957 ، ت: عبد الفتاح محمد الحلو .

(17) سعيد الأفغاني، من تاريخ النحو : 95 ، دار الفكر، بيروت.

(18) محمد طنطاوي ، نشأة النحو : 149 .

(19) نفسه : 150.

(20) المدارس النحوية : 248 .

(21) جميل علوش، ابن الأنباري وجهوده في النحو : 378، الدار العربية ، ليبيا ، تونس ، 1983.

(22) في أصول النحو : 86.

(23) ابن جني ، سر صناعة الإعراب : 28 .

(24) ابن جني ، سر صناعة الإعراب : 28.

(25) ابن الأنباري وجهوده في النحو : 279 .

(26) المدارس النحوية : 280 .

(27) ابن قتيبة ، الشعر و الشعراء : 12 .

(28) الفهرست : 347 .

(29) الفهرست : 369 .

(30) السيوطي ، المزهر : 409/2 .

(31) الزجاجي ، الإيضاح : 05/2 ، دار النفائس ، لبنان ، ت : مازن المبارك .

(32) نفسه : 08/2 .

(33) الفهرست : 347 .

(34) الزبيدي ، الطبقات ، دار المعارف، مصر ، ت: محمد أبو الفضل .

(35) الفهرست :

(36) المدارس النحوية : 257 .

(37) الخصائص : 277/1 .

(38) تاريخ العلماء النحويين : 30-31 .

(39) المدارس النحوية : 272 .

(40) سر صناعة الإعراب : 08 .

(41) المدارس : 384 .

(42) نفسه : 276 .

(43) الفهرست : 347 .

(44) المدارس : 278.

(45) الإنصاف: 05/1 .

(46) الإنصاف : 05/1 .

(47) ابن الأنباري وجهوده في النحو : 271 .

(48) السيوطي، الإقتراح : 71 .ت : أحمد محمد القاسم .

(49) نفسه : 84 .

(50) المدارس : 279 .

(51) نشأة النحو : 135 .

(52) المدارس : 280-281 .

(53) الفهرست :

(54) نفسه : 372 .

(55) الفهرست :ص : 347 و ما بعدها .

(56) السيوطي ، بغية الوعاة : 44 ، دار السعادة ، مصر .

(57) ابن السراج ، الموجز في النحو : 09 .

(58) بغية الوعاة : 44 .